

أطلس تاريخ الإسلام

تأليف

دكتور حسين مؤنس

أطلس تاريخ الإسلام

هذا الكتاب الكبير العمدة ألفه الدكتور حسين مؤنس ويتكون الكتاب بداية من عشرين فصلاً. والكتاب يقع في ٥٣٠ صفحة حجم ٣٧ X ٢٧ سم الفصل الأول عبارة عن: (مدخل في علم الخرائط عند المسلمين).

والمؤلف الدكتور حسين مؤنس أستاذ تاريخ إسلامي ولكنه يرى أن البشرية لها ثلاثة أبعاد: المكان - الزمان - الإنسان.

ولكنه حين كتب هذا الأطلس الجغرافي التاريخي كان يؤمن بأن (المؤرخ لا يتمكن من فنه إلا إذا كان له علم متين بالجغرافية، ولا يصلح الجغرافي إلا إذا كانت لديه قاعدة سليمة من العلم بالتاريخ، لأن الجغرافية هي علم المكان والتاريخ هو علم الزمان، والزمان والمكان هما بعدا الوجود البشري كله، والبعد الثالث هو الإنسان نفسه وهو موضوع التاريخ والجغرافية جميعاً...).

وحين نعلم من هذا الفصل أن العرب لم يؤثر عنهم التفكير في رسم خرائط تاريخية قبل الإسلام، ندرك النقلة التي حدثت بعد الإسلام، ويفضله، فهو الذي حث على العلم وطلبه والسعى إليه في أي موطن حتى ولو كان ذلك الموطن لم يدخله الإسلام فحين وجه الرسول المسلمين إلى طلب العلم ولو في الصين لم يكن الإسلام قد بلغ الصين.. أي أن أهل الصين في زمن الرسول لم يكونوا مسلمين ولكن العلم هو العلم.

والإسلام هو الذي دعا إلى المشي في مناكب الأرض.

وليس غريبا أن يبرعوا بفضل الإسلام في علم الخرائط التي تعتمد على الرحلة والتحقيق والمشاهدة الشخصية وهذا النوع الذي يسمى أصحابه (مدرسة الجغرافية الوصفية) . وهذه كما يقول المؤلف هي (أصح الخرائط العربية وأعظمها قيمة من الناحية العلمية والعملية) وليس غريبا أيضا أن تكون خريطة «الإدريسى» ، (أول خريطة كاملة للأرض عملها إنسان) .

وقد كان الجغرافيون القدماء يكتبون الأرقام في خرائطهم ونصوصهم بالحروف ثم تطورت أشكال الأرقام على أيدي العرب وقد نقلها أهل الغرب عنهم وهي التي تعرف عندنا بالأرقام الأفرنجية وهي أرقام عربية من صنعنا.. بينما الأرقام السائدة في العالم العربي إذا استثنينا المغرب إنما هي أرقام هندية .

ويتحدث الفصل الثاني عن (مراحل انتشار الإسلام في العالم حتى اليوم) . يتحدث المؤلف في هذا الفصل عن موجات التوسع التي شملت فارس والروم والمشرق والمغرب ثم الهند وإفريقية المدارية والاستوائية ولكنني أقف في هذا الفصل عند (طبيعة التوسع الإسلامي) .

إن فتوحات الإسلام ليست الأرض ولكنها (فتوح) في العقل والنفس (فتوح رأسية في العمق لا تقل أهمية عن الفتوح الأفقية في الاتساع) ومن هنا صعوبة تصوير هذه الفتوح الرأسية الحضارية الهامة على الخرائط ولهذا اكتفى المؤلف على بيانها في النص . هذه الفتوح في الأعماق والآفاق أو (هذه الحركة المتصلة ترجع أساسا إلى أن الإسلام بطبعه قوة حضارية مجاهدة) .

وتحدث المؤلف عن (القوى الغربية وتقدم الإسلام) ومن الغريب أنه قصرها على روسيا حيث يقول صادقا (إن عملية البناء الرأسية في العمق تسير بقوة ونشاط في داخل العالم الإسلامي وخارجه، وتأخذ صورا وأشكالا ندرناها ونفهمها أحيانا، ولاندرناها في أحيان أخرى، في داخل العالم الإسلامي وخارجه، ولكننا نحس بها في كل حين، وإذا كان المسلمون لا يدركون حقائقها وأبعادها أحيانا فإن القوى غير الإسلامية التي تحرص على سيادة ما تستطيع سيادته من هذا الكوكب تحس بقوة دفع الإسلام وحيويته إحساسا دائما، وأكبر دليل على ذلك، هذا السيل المتدفق من الكتب والدراسات الإسلامية التي لا يتوقف صدورها في بلاد الغرب وحرص الروس الشديد على وقف التقدم الإسلامي

بمحايرته فى البلاد الإسلامية التى استولوا عليها وحكموها كمستعمرات قبل ثورة أكتوبر سنة ١٩١٧ ثم سموها جمهوريات سوفيتية اشتراكية بعد تلك الثورة، ثم هجومهم العدوانى على أفغانستان فى ١٩٧٦م وهو هجوم لايزال مستمرا حتى سنة ١٩٨٧، وهو يمثل الناحية العسكرية من حرص الروس على التدخل فى شئون الإسلام، ووقف تحركه، كما رأينا فى تشجيعهم السريع لقيام دولة إسرائيل فى قلب العالم الإسلامى، ثم اجتهادهم الدائم بالتدخل السياسى فى شئون الشرق الأوسط وهو قلب عالم الإسلام).

أرى هذا القول يصدق على أمريكا وأوربا كما يصدق على روسيا.. إن روسيا وأمريكا يختلفان فى كل شىء ولكنهما يتفقان على حرب الإسلام. إن وعد بلفور ربيب انجلترا، وأمريكا اعترفت بإسرائيل بعد خمس دقائق من إعلانها هى صاحبة الفيتو التى تشهره فى وجوهنا دفاعا عن عدوان إسرائيل...

لن ننسى مسلمين ما فعلته روسيا وأمريكا والغرب جميعا.

يقول لورنس براون (الخطر الحقيقى كامن فى نظام الإسلام، وفى قدرته على التوسع والإخضاع وفى حيويته... إنه الجدار الوحيد فى وجه الاستعمار الأوروبى).

وتقول مجلة العالم الإسلامى الإنجليزية: (إن شيئا من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغربى. ولهذا الخوف أسباب منها: إن الإسلام منذ أن ظهر فى مكة لم يضعف عدديا، بل دائما فى ازدياد واتساع. ثم إن الإسلام ليس دينا فحسب، بل إن من أركانه الجهاد. ولم يتفق قط أن شعبا دخل فى الإسلام ثم ارتد).

ثم الحروب الصليبية وجوهر المسيحية برىء منها فإن الإسلام مكمل للمسيحية معترف بها وفيه تحية للمتواضعين من أهلها ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون.

كم ناصب الروس والغرب الإسلام العدا مما غطاه الأستاذ العقاد فى كتابين (مايقال عن الإسلام) وكتاب (حقائق الإسلام وأباطيل خصومه).

وقبله الشيخ محمد عبده الذى تكبد الرد على مسيو هانوتو وزير خارجية فرنسا فى ذلك الوقت....

إن العالم الإسلامى حتى فى ضعفه يخيف الأقوياء روسيا وأمريكا معا إنهم يحفظون جيدا أن الإسلام فى مبدأ أمره حين أزاح امبراطورية الفرس، وأطاح بامبراطورية الروم،

لم يكن أتباعه أو جنوده فى ذلك الوقت، الأعلم أو الأغنى، أو الأكثر عددا وعدة، بل العكس هو الصحيح.

إذا هى شحنة الإيمان بالإسلام، وقدرته القادرة على التحريك، ولكن متى يكون ذلك؟

تاريخ الإسلام يثبت أنه عندما يعتنق على وجهه الصحيح، تصير الغلبة للمسلمين، وعندما يهبط به المسلمون إلى طقوس مسطحة مجردة من الجوهر يهبطون بدورهم ويتخلفون عن الريادة والقيادة، لسيادة الشكليات دون الأساسيات التى تبنى النفوس وتبنى، بينائها، الأنظمة.

هذه صفحات لا بد من إضافتها فى محاولة مناقشة رأى المؤلف الذى قصره على عدو دون الآخر، وكلهم أعداء للإسلام وأوطانه. أعود إلى الأطلس.

الفصل الثالث جداول تاريخية مقارنة لأهم أحداث التاريخ الإسلامى، وتعاصر الدول الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى آخر القرن الرابع عشر الهجرى.

جداول لاغنى عنها لدارس تاريخ الإسلام لمعرفة الوضع السياسى فى كل قطر من أقطار الإسلام فى كل وقت من الأوقات وكذلك جداول الدول المتعاصرة أو المتزامنة.

ولم يكتف المؤلف بالجداول التاريخية بل عززها باللوحات التاريخية المقارنة - Com parative Historical Charts على امتداد المساحة الزمنية من بدء التاريخ الهجرى إلى العصر الحديث.

ويدور الفصل الرابع عن العالم قبل الإسلام.

العالم القديم فى عصر البعثة النبوية الشرق الأدنى - الشرق الأوسط - فارس - الهند - الصين - وقبل هذا وقف وقفة طويلة عند أوربا وسطها وشرقها ووقفه خاصة عند إسبانيا..

وهذا الفصل كسائر فصول الكتاب معزز بالخرائط.

ويتعطر الفصل الخامس بالسيرة النبوية والعصر النبوى. ويحكى المؤلف أن المحاولة كانت عسيرة جدا على الرغم من أن العرب ألفوا فى جغرافية الجزيرة كتباً ورسائل

كثيرة، ولكن الصعوبة نجمت عن عدم ثبوت المواقع في شبه الجزيرة، حتى أن المؤلف حين أراد في الخريطة رقم ٤٠ أن يصف الطرق الرئيسية بين مكة المكرمة والمدينة المنورة والطرق الجانبية التي كان الرسول يسلكها، اجتهد في توقيع أسماء المواقع التي درست معتمدا على المعلومات التي لديه عن المسافات.

والخرائط ليست رسما فحسب على أهمية ما يعنيه من توضيح ولكنها تحقيق وتصحيح والمثل: (معركة أحد).

يقول المؤلف: (كنا مثلا نظن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوقف الرماة بقيادة عبد الله بن جبير على جبل أحد، وتبيننا الآن أن ذلك غير صحيح، لأن ارتفاع تل أحد اليوم يصل إلى نحو ١٢٠ مترا، فإذا قدرنا أنه فقد حوالي عشرة أمتار بفعل الرياح وعوامل التعرية خلال القرون الماضية، فهذه مائة وثلاثون مترا، وليس من الممكن أن يرمى رام نبالا ويصيب من مثل هذه المسافة، والمعقول أن يكون الرماة قد وقفوا على تل عينين قليل الارتفاع جنوبي أحد وعلى مسافة قليلة منه، لكي يكون لنبلهم الأثر المطلوب، فإن المشركين كان فيهم مائتا فارس، في حين لم يزد فرسان المسلمين على العشرة، ومثل هذه القوة من الخيالة كانت كفيلة باجتياح مشاة المسلمين، ولم يكن هناك سبيل لحماية المسلمين منها إلا بالرماة يقفون على تل قليل الارتفاع، فتخيفها خوفا شديدا، ولا يهرب الخيل ويوقف حركتها شيء مثل السهام التي تصيبها في الوجوه والصدور أو تمر سريعا بوجوهها، وهذا هو الذي حدث في الدور الأول من المعركة عندما ألغى الرماة عمل الفرسان، وأصبحت المعركة معركة مشاة كما حدث في بدر حيث اجتاح المسلمون أعداءهم، حتى إذا نزل الرماة عن تل عينين أتاحت الفرصة لخيال المشركين فاندفعوا يشتتون صفوف المسلمين، ويقتلون منهم كيف يشاءون، وهنا تدخل المعركة في دورها الثاني).

والخريطة رقم ٥١ خريطة نادرة لمكة ومناسك الحج كما رسمتها في الغالب مصلحة المساحة المصرية في منتصف العشرينات من هذا القرن. كما يضم الأطلس عددا من خرائط ابراهيم باشا رفعت. وليس هذا بالشيء القليل فإن كتابه (مرآة الحرمين) بجزيئه مصدر هذه الخرائط يعد (من ذخائر المكتبة العربية).

والأطلس بدوره، مرآة، لشجرات الأنساب العربية، والفتوحات الإسلامية، والمغرب والأندلس وإيران والهند ومصر والسودان والشام.

ووقف الأطلس عند الدولة الأموية والعباسية والعثمانية .

ولم يغفل الأطلس، الاقتصاد وطرق المواصلات والحج .

وفى الفصل العشرين وقف وقفة طويلة استغرقت سبعا وعشرين صفحة عند عالم الإسلام فى العصور الحديثة .

وهكذا نرى كتاب أطلس تاريخ الإسلام موسوعة إسلامية .. موسوعة جغرافية تاريخية تلتقى فيها الكلمة والخريطة والتحليل والرأى والتحقيق والتوثيق وحشد المراجع عربية وأجنبية . إنه عطاء علمى جليل القدر، باقى الأثر .